ثورة ثقافية أولاً!
سياسيونا ظاهرة صوتية

لا أتذكّر عن أيام طفولتي غير صورٍ من المرح واللعب مع أولاد الحارة مرَّت كلمح البصر، ولم يبقَ منها إلا أثر ضئيل عالق في ذهني. وعلى الرغم من ذلك، كانت أقسى ظروف يواجهها شاب يقف حائرا أمام مستقبل غامض. والمحيط لا يقيم للعلم والحياة أي وزن. كانت جدتي ثم أمي تربّيني بحسب ذوقها، وكانتا تحنّان عليّ وتحضناني كما تحتضن الدجاجة فراخها تحت جناحيها، وتقصّان عليّ حكايات الجن والعفاريت، فأراها في منامي وأصرخ فزعا من أشباحها.

هكذا نشأت وتربّت أجيالنا عموما متشائمة، وورثت عن الآباء والأجداد تقاليد ورثوها عن العصور الغابرة. وزاد الحكم العثماني من قساوتها وظلمتها الحالكة. فكانت تركة ثقيلة معقّدة خلّفتها الأزمنة القديمة للأجيال الحديثة. خرج من تلك المعاناة بعض الرجالات في مستواهم الشخصي بسبب من ملكات لديهم فطرية دعمتها أسر وفئات طائفية متوارثة...

هكذا دفعت مجتمعاتنا ثمن التخلّف المزمن. ولا يمكن أن ننفض عنا غبار الماضي ولو بدرجات، إلا عبر ثورة ثقافية علمية متطورة أولا. أما تجارب الحياة القاسية المشار إليها، فمن شأنها أن تستنهض الهمم الى جانب الثورة هذه، بشرط أن تكون ينابيعها الأولى من صناعة وطنية – إنسانية رائدة.

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه